

مسألة الأسرى والجنود المسيحيين في الدولة الزيانية (633-962هـ/1235-1554م)

الأستاذ: شريف عبد القادر
جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

تمثل مسألة الأسرى المسيحيين في بلاد المغرب الإسلامي خلال الفترة الممتدة بين القرنين السابع والعاشر الهجري (الثالث عشر والخامس عشر الميلادي)، إحدى القضايا الهامة التي شغلت القوى المسيحية والدول الإسلامية في منطقة البحر الأبيض المتوسط، وخاصة في الدولة الزيانية عبد الوادية.

وإذا كان الحضور المسيحي قد تكتف عن طريق الكتائب العسكرية المجلوبة من بلدان الغرب المسيحي، فإن هناك رافد آخر تدعّم به هذا الوجود أيضا، ألا وهو مسألة الأسرى المسيحيين الواقعين في قبضة المسلمين عن طريق الحروب أو القرصنة البحرية التي بلغت ذروتها في هذا العصر وبالإضافة إلى عمليات الجهاد والقرصنة البحرية، تعزز الحضور المسيحي في المغرب الإسلامي بعمليات الترحيل الإجبارية من الأندلس نحو المغرب.

وارتبطت قضية الأسرى المسيحيين في الدولة الزيانية بميزات خاصة جعلتها أمرا واقعا يحكم ارتباطها بسياسة الدولة داخليا وخارجيا وتجسد ذلك في جميع المراسلات التي كانت بين الدولة الزيانية والإمارات المسيحية الأوروبية وخاصة إمارة أراغون وبسبب الحروب التي كانت بين المسلمين والإمارات المسيحية في سواحل البحر المتوسط، كان يقع العديد من الجنود في الأسر بالإضافة إلى أسر بعض المسيحيين الذين كانوا يغيرون على سواحل المغرب، فيؤخذون إلى السجون في تلمسان ومنه تتسائل عن أوضاع هؤلاء الأسرى المسيحيين داخل الدولة الزيانية، ودورهم، وكيف كان يتم إطلاق سراحهم؟

1- أوضاع الأسرى المسيحيين داخل الدولة الزبانية: أ- أسباب الأسر¹:

تمثل الحروب التي كانت بين الدولة الزبانية والإمارات المسيحية وبخاصة في شبه جزيرة إيبيريا مثل أراغون² من أهم القنوات التي وفرت هؤلاء الأسرى داخل الدولة، وكثر عددهم خلال القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي، كما مثلت الغارات التي كانت تقام دوريا مصدر من مصادر جلب الأسرى المسيحيين في سجون الدولة الزبانية³ واعتبرت رافدا هاما في الدخل أي الغنائم لأن افتكاك الأسرى معناه دفع الفدية.⁴ ويكون عدد كبير من هؤلاء الأسرى وقعوا في أيدي الزبانيين خلال العمليات البحرية التي كانت تقام في البحر الأبيض المتوسط وخاصة الجنود الأراغونيين العاملين بالجيش الحفصي والمريني، وسقطوا في الأسر أثناء الحروب بيد الزبانيين مع العلم أن هذه الدول كانت تستعمل المرتزقة المسيحيين كجنود في جيوشها.⁵

ب- نشاط الأسرى المسيحيين داخل الدولة الزبانية:

لقد استخدمت الدولة الزبانية هؤلاء الأسرى في عدة مجالات مختلفة بهدف الاستفادة منهم كيد عاملة فنية بحيث أدوا عدة خدمات وبالتالي ارتبط وجودهم بالحياة الاقتصادية، والاجتماعية، وحتى السياسية.⁶ وصار الأسرى عنصرا مهما وفعالا في البناء والتشييد، وفي ميدان الزراعة، والصناعة. وقد تم توظيفهم في عدة مهن مختلفة منها ضرب السكة، وأعمال الطرقات، وفي خيوط القماش، وصنع الأخفاف، وقطع الخشب أي النجارة، وتسخين الحمامات الخاصة والعامّة. أما في المناطق الريفية فكان الأسرى يعملون في الأراضي الزراعية، ورعاية المواشي، وتشغيل الطواحين.⁷

كما تجلّى دور الأسيرات في خدمة بيوت العائلات الكبرى، وبعضهن كن حظيات لدى أسيادهن كخدم في قصور السلاطين، وقد يكون العديد من هؤلاء الأسرى اعتنقوا الإسلام. لقد مثل هؤلاء الأسرى المسيحيين عماد الحياة الاقتصادية، والاجتماعية في الدولة العبد الوادية، بفضل مختلف الأعمال التي كانوا يقدمونه⁸. فهذا يحيى بن خلدون يقول:

"كان السلطان أبي تاشفين منصرفاً إلى اللذات محباً للنعيم والفخامة مهتماً بأمور الدين في اللهو، كما كان مولعاً بالبناء والتعمير، من حيث تلبس القصور وتزيينها، مع إقامة المصانع وإنشاء المنتزهات، وذلك بفضل الأسرى المسيحيين الذين وقعوا في يد الزيانيين وكانوا نجارين وبنائين وزليجين وزواقين وغير ذلك."⁹ لذلك اعتبر البحر الأبيض المتوسط سوقاً تجارياً هاماً بالنسبة للأسرى، سواء من حيث تبادلهم أو بيعهم أو إطلاق سراحهم، وقد أكد على ذلك السلطان الزياني أبا تاشفين الأول عام 1320م في رده على رسالة جاك الثاني ملك أراغون حيث قال أن هؤلاء الأسرى هم من قاموا بكل الأعمال في الدولة ولا يمكن إطلاق سراح جميعهم لأن ذلك سيؤثر على عملية البناء والتشييد ويحدث ضرراً في اقتصاد الدولة وأكد على الاحتفاظ بهم وعدم إطلاقهم.¹⁰ وهذا النص يؤكد ذلك "لأن تعلمون ما عمر بلادنا إلا الأسارى وأكثرهم صناع مفنون في جميع الصنائع، أما تسريح الجميع فصعب الآن وذلك يخلي المواضع ويعطل ما يحتاج إليه من أنواع الصنائع" فهي رسالة صريحة تبين أهمية هؤلاء الأسرى في نظام الدولة الزيانية من خلال الاستعانة بخدماتهم في جميع المجالات والخدمات المختلفة¹¹.

لقد أسهم الأسرى المسيحيون بشكل كبير في عملية البناء الاقتصادي للدولة الزيانية، حتى لم تكن الدولة قادرة عن الاستغناء عن خدماتهم، رغم المراسلات المتبادلة بين السلاطين، والأمراء المسيحيين بهدف إطلاق سراحهم.

1- قضية إطلاق سراح الأسرى المسيحيين:

أ- المفاوضات الزيانية الأراجونية: المراسلات (السفارات) بين الحكومة الزيانية ومملكة أراغون انغودجا.

اكتسبت عملية إطلاق سراح الأسرى المسيحيين أو عملية افتكاكهم أهمية كبيرة على صعيد هرم السلطة بالنسبة للإمارات المسيحية، والسلطة الزيانية وبخاصة إمارة أراغون وجرت العديد من المراسلات والمفاوضات بشأن إطلاق سراحهم رغم الصعوبات التي واجهت العملية، بحيث عرفت

البعثات والسفارات المتبادلة بين الطرفين مراحل توقف بسبب الحروب التي كانت تجري في منطقة البحر المتوسط¹².

وقد أخذت حكومات الإمارات المسيحية على عاتقها المسألة بجدية وأجرت العديد من المفاوضات لافتكاك أسراها واكتست العملية طابعا رسميا وإن لم يكن للقناصل دورا كبيرا في بعض القضايا الخاصة بإطلاق سراح الأسرى المسيحيين من ضحايا الغارات البحرية أو تسوية مخلفات القرصنة، وتمثل المعاهدات والمراسلات التي كانت بين الدولة الزيانية ومملكة أراغون نموذجا حيا على أهمية مسألة الأسرى واتخذت شكلا رسميا بين قادة البلدين ويظهر أن العديد من السفارات المتبادلة ركزت بشكل كبير على إطلاق سراح الأسرى المسيحيين داخل الدولة الزيانية حتى اشترط التوقيع على بعض المعاهدات بضرورة إطلاق سراحهم¹³.

ففي 24 أبريل 1319م الموافق لـ 3 ربيع الثاني 719هـ بعث ملك أراغون خايمي الثاني رسالة إلى الأمير الزياني أبو تاشفين الأول تضمنت ضرورة إطلاق سراح الأسرى المسيحيين الأرجونيين داخل تلمسان وحددت عددهم بـ 300 أسير ويكون ذلك على مراحل بحيث يطلق سراح 50 أسيرا في مدة عامين بينما الباقي يكون إطلاق سراحهم خلال فترة مدة المعاهدة التي حددت بعشرة سنوات. كما جاء في مراسلة بتاريخ 15 مارس 1325م الموافق لـ 28 ربيع الأول 725هـ حملها خايمي الأراغوني ابن غير شرعي لخايمي الثاني تضمنت عدة نقاط فيما يخص إطلاق سراح الأسرى، حيث أكدت على ضرورة التزام تلمسان بإطلاق سراح المسيحيين الأراغونيين وتعهد السلطان الزياني على إطلاق حوالي 30 أو 40 أسيرا. وخلال هذه الفترة أفتدي أسيرا قطالونيا بمبلغ قدره 500 دينار¹⁴.

وفي رسالة أخرى مؤرخة في عام 727هـ/1327م جاء فيها قبول المقترحات الزيانية لكن ألفونسو الأراجوني كان يتمنى لو يكون عدد الأسرى الذين أطلق سراحهم أكثر من هذا العدد وطلب من تلمسان إطلاق جميع رعاياها الذين في الأسر كما منح العديد من الأسماء المسيحية المطلوب إطلاق سراحهم وجرت مفاوضات بين الوفد الأراجوني بقيادة

خايي والمستشار القضائي "ثيما" والسفير الزباني، وفيه تم الاتفاق على إطلاق سراح بعض الأسرى المسيحيين وردا على الرسالة التي بعثها أبي تاشفين إلى الأراغوني ألفونسو فقد تمكن من التوقيع على المعاهدة بسرعة 26 ديسمبر 1329م/4 ربيع الأول 730هـ وقد تعهد أبي تاشفين بإطلاق سراح 30 أسيرا من بينهم الذين ذكر أسماءهم الملك، وإن لم يكن عدد القطلانيين¹⁵ فيمكن تحرير باقي العدد من أهل ميورقة¹⁶، لم توقع الاتفاقية بسبب تغير الأوضاع في المنطقة. وفي عام 1330م/730هـ أرسل ألفونسو أخوه خايي للتفاوض حول عدة مقترحات أهمها ضرورة إطلاق سراح مائة أسير أراغوني دون الالتزام بدفع الفدية لهم وقد تشدد ألفونسو في هذه النقطة وربط توقيع المعاهدة بهذه القضية¹⁷.

وأكدت الرسالة التي بعثها أبو حمو موسى الثاني¹⁸ إلى ملك أراغون والمؤرخة في 23 صفر 764هـ الموافق لـ 11 ديسمبر 1362م على أهمية العلاقات الدبلوماسية الزبانية التي تميزت بالتبادل والتعاون بحيث تضمنت جملة من القضايا الهامة كالتبادل التجاري، وقضية تبادل وإطلاق الأسرى المسيحيين أو المسلمين، حيث صرح أنه أطلق عدد من الأسرى المسيحيين بعد الرسائل التي وصلته، لكن هناك عدد منهم أراد الإقامة والبقاء وطلبوا الخدمة الدائمة فسمح لهم وترك لهم الحرية وأعاد لهم أملاكهم على أن حوالي ثلاثين منهم عزموا على الرحيل إلى بلدهم وتزامن ذلك مع اعتداء على موانئ الإمارة في هنين ووهران ومستغانم وأسر عدد من المسلمين، وهو الأمر الذي دفعه إلى الامتناع عن تسليم الأسرى المسيحيين شرط تسريح الأسرى الزبانيين بمقتضى الاتفاقية التي تربطهما والتي أكدها الرسول فرنسيس قوسطة¹⁹.

ب- دور اليهود في عملية افكاك الأسرى:

لعب اليهود وسكان المناطق الساحلية دورا بارزا وهاما في عملية افكاك الأسرى المسيحيين والمسلمين، وكان يطلق اسم الفكاك على كل واحد يهتم بهذه القضايا وعرفوا بالأمانة والصدق والاستقامة وتمتعوا بثقة المسؤولين المسيحيين والمسلمين معا، على أن هؤلاء الفكاكين كانوا يقومون بهذه المهمة مقابل تقاضي عمولة أو أجر على أتعابهم، وكانت تتم

العملية إما بالتفاوض أو التبادل أو الافتداء واتخذوا من اسبانيا مركزا لإقامتهم²⁰.

ج- دور الكنيسة والرهبان في عملية افتداء الأسرى:

عملت الكنيسة عن طريق الباباوات دورا مهما في إطلاق سراح الأسرى المسيحيين في الدول الإسلامية وخاصة الدولة الزيانية، وتجسد ذلك من خلال الرسائل الموجهة إلى الرهبان والتي تحثهم وتأمروهم بإسعاف الأسرى ورعايتهم روحيا وبالحفاظ على عقيدتهم المسيحية وتقويتها. فاهتم القساوسة والمبشرون بشؤون الأسرى الدينية والدينية وذلك عن طريق الوعظ، وتثبيت العادات المسيحية في نفوسهم، وإسعاف المرضى بالأدوية الروحية والجسدية والقيام بالزيارات داخل السجون والاحتفال معهم بالمقدمات والتواصل معهم دون انقطاع، ومواساتهم في محتهم وقاموا بمهمة الرعاية الروحية والإنسانية إضافة إلى محاولة افتدائهم بأنفسهم. وبدأت عملية تنظيم افتداء الأسرى المسيحيين بطريقة منهجية ومنظمة في الأقطار الإسلامية في هذه الفترة بعد إنشاء فرقتي الثالث المقدس وعذراء الرحمة²¹.

وفرقة الثالث المقدس أنشأها القديس يوحنا متا والقديس فيليك سدي فالوا وذلك وفقا لقرار البابا انوسان الثالث المؤرخ في 1198/12/17م حيث تعهد الرهبان بإنفاق ثلث ممتلكاتهم حاضرا ومستقبلا في سبيل افتداء الأسرى، وانطلق نشاط جمعية القساوسة الثلاثين (trinitaires) من مدينة مارسيليا، كما اهتمت جمعيات أخرى من القساوسة بعثت عديد من الأسرى المسيحيين الذين كانوا بالدولة الزيانية وكان ذلك عام 1402م، ومن جانب آخر كانت مذاهب دينية أخرى تهتم بشراء الأسرى من الخواص والقراصنة فمثلا الأب "لونترايرس" لعب دورا هاما في عملية فدية الأسرى من الجزائر والمغرب²².

أما منظمة عذراء الرحمة فأنشأها بطرس لولا القديس في مدينة برشلونة سنة 1218م وتأكد ترسيمها في عام 1235م، بمقتضى قرار صادر عن الملك غرغوار السابع مهمتها افتداء الأسرى والتضحية في سبيلهم واستدعى تقديم أنفسهم كضمان لدفع الفدية للمسلمين، حتى أن في سنة

1266م نفذ حكم الإعدام على واحد منهم في بجاية بعد قيامه بعملية إنقاذ، وظهر نشاطهم خلال القرن 14م والنصف الأول من القرن 15م لافتناء الأسرى وقد تعرضوا للموت في عنابة والقل وبجاية وأغلبهم من أصل قطلوني وبعضهم من الفرنسيين، كما حرص الملك مرتان الأراجوني أن يكون حامى رهبان الرحمة واهتم بقضية افتداء الأسرى الموجودين في بلاد المغرب، وقد أوصى أمير بجاية وأمير عنابة خيرا براهبين من رهبان الرحمة من خلال رسالة بعثها لهما²³.

وفي عام 1379م منح البابا (كليمان السابع) امتيازاً للأشخاص الذين يساهمون في افتداء اثنين من الرهبان الفرنسيين الأسرى مع 350 نصرايا آخر في بجاية. أما بالنسبة لافتناء الأسرى المسيحيين المحافظين على ديانتهم فكانت تتم بطرق فردية وخاصة بواسطة عائلاتهم أو أصدقائهم أو بصورة جماعية وعمومية مقابل المبادلات أو الغرامات المنصوص عليها في الاتفاقيات مع الدول الأوروبية وإما بفدية المبشرين المنقذين²⁴.

لقد مثل الأسرى المسيحيين في الدولة الزيانية مجالا وفضاء خصبا استغلته الدولة في خدمة اقتصادها ومشاريعها. فقد كان هؤلاء يد عاملة فنية رخيصة التكاليف، ودخلا هاما في خزينة الدولة من عائدات أموال الفدية. كما أخذت مسألة الأسرى حيزا هاما في المراسلات الدبلوماسية استعملتها الدول المسيحية كورقة ضغط لخدمة اغراض دينية وسياسية.

ثانيا: الجنود المسيحيين المرتزقة في الدولة الزيانية

إن تحقيق الأمن والاستقرار الذي كانت السلطة الزيانية تسعى من ورائه إلى حماية نفسها من تمردات القبائل المعارضة، بالإضافة إلى تقوية الجهاز الأمني لصد التحرشات، من الدول المجاورة. كان يتم بواسطة جلب كتائب عسكرية مسيحية لاستعمالها كفرق حرس خاصة لحماية الخليفة، أو كفرق مجندة لإخراص الأصوات المناوئة لنظامه.

على أن مسألة استقدام العناصر المرتزقة لحماية الأسرة الحاكمة، خلال الفترة الوسيطة اعتبر تقليدا اتبعته جميع دول المغرب الإسلامي. ولما كانت الدول المسيحية -وخاصة إسبانيا- أقرب المناطق إلى بلاد المغرب، فإن جلب فرق عسكرية منها بات مسألة بديهية²⁵.

استخدم المرابطون الجنود المسيحيون، كفرق مرتزقة متطوعة في أوائل القرن السادس هجري، الثاني عشر ميلادي، استأجرهم السلطان لحراسته أو للدفاع عن مملكته، إلى جانب الجيش المحلي، مقابل أجر معلوم وكان الموحدون قد انتقدوا المرابطين، في استخدامهم للفرقة العسكرية المسيحية المستقرة بمدينة مراكش، التي خاضت معارك كثيرة ضدهم، وكان انتصارهم على المرابطين واستيلائهم على مراكش نهاية لوجود الجند النصاري في الجيش الإسلامي في بلاد المغرب²⁶.

إن أول إشارة لظهور كتائب عسكرية من البلدان المسيحية في العصر الموحي تقترن بعهد الخليفة الموحي أبي يوسف يعقوب المنصور (580-595هـ/1184-1198م). فقد شيد هذا الحاكم عدة قصور، وأسكن فيها عددا من الجند الرومي بلغ عددهم حوالي الألف بالإضافة إلى نسائهم وأبنائهم. ويبدو أنه استعملهم كحرس خاص، لا كجند نظامي مادام الهدوء والأمن كان هو الجو المهيمن في عهده وفي عهد الخليفة المستنصر (610-620هـ/1213-1223م)، وهو العهد الذي اقترن ببداية الأزمة الموحدية بعد معركة العقاب سنة 609هـ/1212م تزايدت الكتائب العسكرية النصراية.²⁷ والميزة الرئيسية لهذه الكتائب العسكرية المسيحية تكمن في أنها لم تعد كما كان الحال في العصر المرابطي متكوّنة من أسرى الحروب، بل من رجال أحرار التزموا بخدمة الخلفاء الموحدين، بمحض إرادتهم. وإذا كنا لا نعرف بالتدقيق المناطق التي أتوا منها، فمن المؤكد أنهم قدموا من مختلف مناطق الغرب المسيحي.²⁸

وقد أشارت المصادر العربية إلى الوجود المسيحي داخل الجيش الموحي، فالمراكشي يشير إلى أنه كان لدى المصامدة "جند من سائر أصناف الناس كالعرب والغز والأندلس والروم".²⁹ غير أن استخدام الجيش النصراي في العصر الموحي كان أكثر كثافة وحضورا في عهد الخليفة المأمون (627-629هـ/1229-1231م) الذي تجذرت الأزمة في عهده حتى أصبح عهدا مترعا بالاضطرابات التي أسفرت عن الإطاحة به من قبل أحد إخوته، مما حدا به إلى الاستنجاد بأحد ملوك قشتالة لإمداده بحاميات عسكرية بهدف استرجاع سلطته في مراكش. وكان

المأمون قد أنزلها بحج خاص بمدينة مراکش، وبنى لهم هذا الخليفة كنيسة في المدينة ليؤدوا شعائهم الدينية، وكانت أول كنيسة مسيحية تبنى في المغرب الأقصى في العهد الإسلامي³⁰. وتختلف الروايات حول عدد الجنود المسيحيين الذين استقدمهم لنجدته حيث جعلهم كل من ابن أبي زرع، والناصرى اثني عشر ألفاً، بينما حصرهم ابن عذاري في 500 فارس³¹. وعلى الرغم من تشدد المذهب الموحدى تجاه استتجار النصارى، إلا أن الخلفاء الموحدين، استخدموا مثل هذه الفرق العسكرية في جيشهم، وقد انتقلت فرقة مسيحية تتكون من ألفي فارس من خدمة الموحدين إلى خدمة الزيانيين بعد انتصارهم على الجيش الموحدى سنة 646هـ—1248م هذه الطائفة من الجند النصارى التي استفحل أمرها وعلا شأنها. وكان هؤلاء النصارى يعملون تحت قيادة أحدهم يدعى "أخا القمط" "القائد"³².

1- نشاط الجنود المسيحيين في الدولة الزيانية:

فرضت العلاقات بين اسبانيا القطلانية، والبلدان المغاربية، ومنها تلمسان، صيغة أمنية اجتماعية، أثرت على الواقع السياسى والبشرى، وتمثل ذلك في اقدام السلاطين في هذه البلدان على تأجير المرتزقة القطلانيين في جيوشهم وفي الحاميات الشخصية، وعلى مستوى البلاط الرسمى. فكان الحرس الحامى للسلطان وبيته وعائلته من المرتزقة، وكانت ألوية من الجيش أو الأساطيل تتكون من المرتزقة، وكان ملوك النصارى هم الذين يقومون بتعيين وتأجير مرتزقة الحرس³³، واشترط ذلك في كل معاهدة أو عقد بين الطرفين ففي المعاهدة المبرمة عام 648هـ/1250م بين الأمير يغمراسن بن زيان وملك أراغون خايمي الأول جاء فيها طلب المساعدة بفرقة من الفرسان القطلانيين. وفي نفس السياق هناك سفارة زيانية في عهد ابي حمو موسى في شهر ماي من العام 713هـ/1313م، طلب فيها السلطان الزياني من الملك الأراغونى خايمي الثانى تزويده بست سفن بحرية مجهزة بالعتاد الحربى، يعمل عليها بحارة أراغونيين للعمل في خدمة الزيانيين لمدة عام أو أكثر.³⁴

عمل يغمراسن بن زيان، بعد مقتل الأمير الموحيدي السعيد على استخدام الجند النصارى في جيشه، وقد قربهم منه، وجعلهم من ضمن حاشيته، مباھيا بهم في المواقف والمشاهد. ولكن عندما استفحل أمرهم حاولوا الغدربه سنة 652هـ/1254م، مما جعل سلاطين بني زيان يتراجعون عن استخدام الفرق العسكرية المرتزقة في جيوشهم.³⁵ غير أن بعض النصوص العربية واللاتينية، تبين عكس ذلك، بحيث تشير إلى أنه في سنة (665هـ/1266م)، استخدم العاهل التلمساني فرقة مسيحية هامة، تتكون من الكتالونيين، والأراغونيين، بقيادة "الأب فيلارجو" الذي أرسله الحاكم "جقمه الأول" سفيرا أو قائدا إلى تلمسان لمدة ثلاث سنوات يقوم خلالها بمهام عسكرية تتمثل في الإشراف على الجند المسيحيين الذين كانوا في خدمة الدولة الزيرية.³⁶ ثم تولى القيادة بعده "قيوم قالسيان دي كارتيللا" الذي عوض سابقه قبل نهاية مدته للقيام بنفس المهام، وكان ذلك عام 666هـ/1267م، كما أعيد انتخابه عام 671هـ/1272م³⁷ وخلال هذه السنة كان حوالي 500 فارس من الروم يحاربون إلى جانب يغمراسن، ضد بني مرين الذين تمكنوا من القضاء عليهم جميعا.³⁸ وبداية من عام 679هـ/1280م تولى رئاسة الفرقة المسيحية في تلمسان القائد "جوم بيراز هجين الملك بيار الثالث الأراغوني. ووفق المعاهدة الموقعة بين عثمان بن يغمراسن، وملك أراغون ألفونسو سنة 685هـ/1286م، والتي تتضمن في بنودها أن الجندي المرتزق في الجيش الزيري يتقاضى ما بين 12 إلى 20 درهم في اليوم أي ما يعادل تقريبا 360 إلى 600 درهم شهريا. على أن جزء أو نصيب من هذا الأجر يأخذه الملك الأراغوني نظير سماحه لهذه الفرق بالارتزاق في الجيش الزيري.³⁹

وللإشارة فإن البابا نيكولا الرابع حث الجنود المسيحيين في سنة (689هـ/1290م)، على التمسك بديانتهم والتحلي بالسلوك القويم، وعدم اعتناق الإسلام، وهذا في حد ذاته يعد تنبيها للمسيحيين، الذين يعملون مرتزقة في الفرق العسكرية لصالح المسلمين هذا من جهة، ويعتبر اعترافا من جهة أخرى، بهذه الخدمة من البابا نفسه، لأن السلطة البابوية- فيما يبدو- كانت تأمل أن تجني من هذه الخدمة، بعض المزايا لفائدة

المسيحية، في بلاد المغرب عامة، ومدينة تلمسان على وجه الخصوص.⁴⁰ وهي تدخل ضمن الاستراتيجية التبشيرية والتنصيرية، حيث كانت خيوط هذه السياسة تحاك في روما وقشتالة وبرشلونة وميورقة ووسائلها تدعم في الخفاء، لكن في دواوين الدولة والبلالط السلطاني، عن طريق الجنود المسيحيين المرتزقة وقادتهم النصارى الشخصيات المؤثرة سياسيا واستراتيجيا وروحيا ومصيريا في الدول المغاربية.⁴¹

وترأس أيضا الفرقة الأراغونية الكتلونية، التي تخدم سلاطين تلمسان، الفارس رودريكو سانشيز دي فيرغاس، وقد استمر وجود المليشيات المسيحية في الدولة الزيانية، بعد الحصار الطويل الذي تعرضت له مدينة تلمسان من قبل المرينيين في عهد أبي حمو موسى الأول، وكان قائدها آنذاك الفارس فيليب دي مورا. وكان يقود الفرقة الميورقية، ما بين سنتي (725-730هـ/1325-1330م)، ايستريس غيوم الذي لعب دورا كبيرا وذلك بتقديمه خدمات للسلطان أبي تاشفين الأول.⁴² وخلال هذه الفترة استقبلت الدولة الزيانية عدد كبير من أرباب السيف من النصارى، ومن بين هؤلاء ابن الملك جاك الثاني هجين جاك الأراغوني، وصار هذا الأخير يقوم مقام الوسيط الدبلوماسي بين سلطان تلمسان والملك الأراغوني.⁴³

واستخدم أبو حمو الزياني الثاني المرتزقة المسيحيين في جيشه وصنفهم ضمن الممالك الخاصة بحراسته وفي هذا الصدد يقول صاحب البغية: "فاستركب الحرم وحمل الأموال واكفل بذلك الحصيان والنصارى المستخدمين"⁴⁴، وقد وجد عاهل أرغون فائدة كبيرة في وجود الفرق العسكرية المسيحية، في خدمة الدولة الزيانية وغيرها، لأنه كان يأخذ ضرائب غير مباشرة عن رواتبهم. كما كان الجند بدورهم، يقدمون جزء من رواتبهم للخزينة الأراغونية. وكانت رواتب هذه الفرق المسيحية، الملازمة للخدمة مرتفعة، بحيث تتراوح ما بين خمسة دنانير وخمسين دينارا ذهبيا في كل شهر، وكان ملوك أرغون، حريصين على تعيين قيادات الجند بأنفسهم، وعزلهم حسب مشيقتهم، وكانوا يطالبون في كثير من الأحيان، بمد نفوذهم إلى قيادات الجند النصارى المرتزقة العاملين بالمغرب

الأوسط، وبعاصمته تلمسان على وجه الخصوص، أو المارين بها مهما كانت جنسياتهم الأوروبية.⁴⁵

وقد تدعم هذا التعاون العسكري، بين أراغون وتلمسان بمعاهدة عام 725هـ/1325م من بنودها أن الملك الأراغوني يكون حامي كل المسيحيين المتواجدين بالمغرب الأوسط، وله الحق في تعيين قائد الفرقة العسكرية المسيحية في تلمسان، لأن هذا القائد سيحمل شعار أراغون،⁴⁶ بينما يتولى ملك كتالونية رعاية مسيحيي البحر المتوسط الآخرين، كالإيطاليين والفرنسيين في دول أخرى. ومن مظاهر ذلك بروز منصب القائد والقائد العام وهو لقب كان يسند إلى كل من يشرف على فيلق من فيالق الحرس، مقابل مرتب هام يفوق بكثير مرتب عسكر الحرس، بينما لقب القائد الأعلى يطلق على زعيم القواد، وكل من يفرض نفسه من بين القواد بأعماله وخدماته في الفتن والحروب. وكان يعين لكل بلد واحد أحيانا قائد أعلى للقطلانيين الميورقيين، وآخر لقطلانني برشلونة.⁴⁷ ولعل الشيء البارز هو أن زعيم الجميع كان عادة قطلانيا يعينه ملك أراغون نفسه، فمثلا كان في تلمسان "جاقمو اللقيط بن جاقمو الثاني" هو القائد المسؤول الأعلى بالنسبة لجميع المسيحيين في الدولة الزيانية، في فترة من الفترات،⁴⁸ وكان هذا القائد العام الأعلى ينصب نفسه رئيس الكل النصارى، وقاضيا لهم ينظر في جميع أحوالهم وشؤونهم، ويفصل في مشاكلهم. مما جعل لهذا القائد نفوذ واسع على الكتائب المسيحية، وحتى على الدولة الزيانية، كما أصبح له دور كبير في توجيه السلطان وتحديد سياسته، تجاه الجنود النصارى.⁴⁹ وعادة ما كان يستأثر بمنصب مستشار السلطان، مثلما كان الأمر بالنسبة لتاشفين الزياني الذي تربى على يد أحد العلوج النصارى الذي يسمى هلال القطلاني.⁵⁰ ولازمه منذ الصغر وأصبح مستشارا له، ولعب دور بارز في دفع ابي تاشفين الى قتل أبيه أبي حمو والانفراد بالحكم. وكان هذا القائد الأعلى يتقاضى أجرا وحقوقا على كل القضايا التي يفصل فيها تخص النصارى القطلانيين. الأمر الذي جعل من منصب القائد الأعلى امتيازا كبيرا يكون فيه صاحبه يتمتع بمكانة مرموقة ومؤثرة، فمنهم المخلص للسلطان، ومنهم الجاسوس المتآمر

مع ملوك دوله يسعى إلى تحقيق أهدافهم ومصالحهم وهذا ما أكدته تصريحاتهم ومن ذلك ما جاء في الرسالة التي بعثها الحاجب هلال عام 727هـ/1327م إلى الملك جاقمو الثاني يطمأنه فيها بقوله "إني لكم كما تحبون مجتهد فيما يتجه لكم عندي من الحوائج على سبب ماتريدون".⁵¹ يفهم من ذلك أن الفرق المسيحية كان لها شأن كبير في سياسة هذه الدول، ويعكس من جهة أخرى تدخلها في سياسة السلاطين لتحقيق أغراض قادة دولهم. وهو ما يفند ما ذهب إليه خوسي اليماني في دراسته حين قال: "ولا ندري أي نظام في أصله كانت تتبعه، إلا أن نظامها وعملها في مملكتي تونس وتلمسان كان مستقلا عن الجيش المغربي". على أن هذه الكتابات كانت تؤدي الولاء والطاعة، عند اعتلاء أي سلطان جديد للعرش يقودهم القائد الأعلى.⁵²

2- أحوالهم الاجتماعية والدينية وموقف العامة منهم:

والظاهر أن الجند المرتقة، كانوا يسكنون، في حي منفصل خاص بهم، يعرف بربرض النصارى، وكانوا يتمتعون بأداء شعائرهم الدينية، وسمح لهم في بعض الفترات بقرع أجراسهم، ويديرون شؤونهم بأنفسهم، كما كانوا معفيين من جميع الضرائب والرسوم الجمركية، ويخضعون لسلطة قوادهم القضائية.⁵³

وكان المسلمون يستخدمونهم في حروبهم ضد الدول المجاورة، أو ضد القبائل الثائرة، أو ضد النصارى أنفسهم، وذلك لتمييزهم في القتال بسبب الاحترافية والتدريب على فنون الحرب في بلدانهم في المدارس العسكرية، بل كان بعضهم فرسانا من طبقات الأشراف، ثم اختلفوا مع ملوكهم أو سادتهم الإقطاعيين، فنفيوا من بلدانهم.⁵⁴ ولعل رد فعل المسلمين، عن خدمة هذه الفرق العسكرية المسيحية، لسلاطين الدولة الزيانية لم يكن واضحا، بل ربما لم يكثر ثوابهم في كثير من الأحيان.⁵⁵ لكن لم يمنع من وجود بعض المواقف الراضية لهم، ومن ذلك نعتهم ببعض الكلمات مثل ايفرخان⁵⁶، والتي تعني الإنسان المنحط، أو الابن غير الشرعي، فكان العامة ينعتون به الجنود النصارى استصغارا لهم، وتقليلًا من شأنهم. ودفعًا للخصومات والصدمات بين الجنود المسيحيين والعامة من المغاربة، صدر

قرار عن البابا نيكولا الرابع في عام 1290م يدعو الجنود المسيحيين العاملين في خدمة سلاطين شمال افريقيا على التمسك بديانتهم ورفع رأسها بسلوكهم العادل والوفي.⁵⁷

لقد تعددت وظائف هؤلاء الجند المرتزقة، فمنهم القادة والفرسان، والرماة، والمشاة بالمشاة، وكانوا موزعين بمختلف المدن والمراسي، ومكلفين كذلك بإخماد الثورات لذلك كانوا يجوبون البلاد، وكانوا يعيشون نمط حياة المسلمين عامة. ويكون هؤلاء المرتزقة قد اندمجوا مع المجتمع المغربي وبخاصة الزياني، وحدثت مصاهرات واختلاطات بشرية فيما بين الطرفين، لعبت دورا في مختلف الفتن والمؤامرات والتحالفات الرسمية مع الأمراء والوزراء، ويكون قد شاركوا في العديد من الانقلابات ضد السلاطين، يقودهم القائد الذي يعمل بتوجيهات وأوامر ملك أراغون، وحتى بأوامر الكنيسة.⁵⁸

— الهوامش:

¹ - الأسير: لغة الحبس أو القيد وجمعها أسارى والأسير المسجون. أي يؤخذ ويستوثق حتى لا يهرب، أما اصطلاحاً فهو وقوع المحارب حياً في يد عدوه أثناء القتال، بمعنى أن كل شخص قيد أثناء الحرب يدعى أسير، كما يطلق مصطلح الرهائن أحياناً. انظر: ابن منظور: لسان العرب، دار الحديث، القاهرة ط. 2006، مج. 1، ص 148؛ محمد رواس قلعه جي: معجم لغة الفقهاء، دار النفائس، بيروت لبنان، ط. 2، 1982، ص 67.

² - أراغون: منطقة شمال شرقي اسبانيا عاصمتها سرقسطه، تزوج ملكها فردناند مع ازابيلا ملكة قشتالة فاتحدت الإماراتين ونشأت مملكة اسبانيا عام 1479م. انظر: عبد الله العلايلي وآخرون: المنجد في الأعلام، دار المشرق، بيروت، ط. 17، 1991، ص 34.

³ - الدولة الزيانية: كانت تطلق تسمية الدولة العبد الوادية حتى تاريخ اعتلاء ابو حمو موسى الثاني الحكم عام 760هـ/1358م، وأصبحت تدعى الدولة الزيانية. ويرجع أصل بن عبد الواد الى القبيلة الأمازيغية زناتة كان موطنهم ما بين جبال سعيده شرقاً ووادي ملوية غرباً. انظر: عبد الرحمان الجيالي: تاريخ الجزائر العام، المطبعة العربية، الجزائر، ط. 1955، ج. 2، ص 114.

- ⁴ - عبد العزيز فيلاي: تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ج.1، ص191، 192؛ يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1. 1982، ص111-112.
- ⁵ - البارودي رضوان: دراسات وبحوث في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 2007، ص30-31.
- ⁶ - يوسف شكري، المرجع السابق، ص112.
- ⁷ - Atallah dhina :lesetats del'occident musulman aux xiie et xve siècles, office des publications universitaires, alger, 1984, p.397-399.
- ⁸ - يوسف شكري، المرجع السابق، ص112-113.
- ⁹ - يحيى بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح. عبد الحميد حاجيات، وزارة الثقافة، الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007، ج.1، ص216.
- ¹⁰ - عبد العزيز فيلاي: دراسات في تاريخ الجزائر والغرب الإسلامي، دارالهدى، عين مليلة، الجزائر، 2012، ص66-67.
- ¹¹ - البارودي، المرجع السابق، ص31.
- ¹² - بديدة الخرازي: تاريخ الكنيسة النصرانية في المغرب الأقصى، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط1، 2007، ص52.
- ¹³ - روبر برانشفيك: إفريقية في العهد الحفصي، تر. حمادي الساحلي، دارالغرب الإسلامي، ط. 1988، ج.1، ص469.
- ¹⁴ - عبدالعزيز فيلاي: المرجع السابق، ص66؛ رضوان البارودي، المرجع السابق، ص28-29.
- ¹⁵ - قطلونية: منطقة في شمال شرقي اسبانيا قاعدتها برشلونة، اتحدت مع اسبانيا عام 1469م من أقاليمها: برشلونة، لريدة، تراغونا تقع في شرق البيرنيه في حوض أبرو. انظر: عبدالله العلايلي، المرجع السابق، ص434.
- ¹⁶ - ميورقة: إحدى جزر البليار في المتوسط، بها بالما عاصمة الأرخيبيل تقدر مساحتها 3500 كلم مربع، منطقة سياحية عالمية، تشتهر بزراعة الحمضيات. انظر: نفسه، ص566.
- ¹⁷ - البارودي: المرجع السابق ص45-46.
- ¹⁸ - أبوهمو موسى الثاني: بن يوسف بن عبد الرحمان بن يحيى بن يغمراسن بن زيان، ولد بالأندلس سنة 723هـ/1323م، أهل علم وآداب وسياسة وفروسية وشاعراً، صاحب تسمية

الدولة بالدولة الزيانية، توفي عام 791/1389م. انظر: عبد الرحمن الجليلي، المرجع السابق، ص163؛ عبد الحميد حاجيات: أبوجهم موسى الزياني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، 1982، ص69 وما بعدها.

19-- hajiat abdelhamid :le maghrebcentral sous le regne du sultanziyanideabou ha'mmou mousa ii(760-91/1359-89),edition errachaed,2009,sidi bel abeés,algerie,p.412-413.

20 - عبدالعزيز فيلالي، المرجع السابق، ص66-67؛ يوسف شكري، المرجع السابق، ص112-113.

21 - بديعة الخرازي، المرجع السابق، ص52.

22 - صالح بن قربة وآخرون: تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، 2007، ص319؛

E.Royston pik: Dictionnaire Des Religions, Adaptation Française de serge hutin, presses universitaires deFrance, paris, 1954 ,p308.

23 - روبرابرانشفيك، المرجع السابق، ج.1، ص485.

24 - نفسه، ص489.

25 - ألفريد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، تر. عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط.3، 1987، ص328.

26 - عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني ، ج.1، ص188.

27 - إبراهيم القادري بوتشيش، الجاليات المسيحية بالمغرب الإسلامي خلال عصر الموحدين، مجلة الإجتهد، بيروت، لبنان، 1996، ع.28، ص82.

28 - خوسي اليماني، الكتائب المسيحية في خدمة الملوك المغاربة، تر. أحمد مدينة، مجلة دعوة الحق، المملكة المغربية، الرباط، 1978، ع.5، ص35.

29 - عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مطبعة ليدن، 1881، ص253.

30 - عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص188.

31 - لا تتفق المصادر حول تحديد عددهم بالضبط، المراكشي يقول "ومن المرتقة الذين في مراکش حوالي عشرة آلاف"، انظر: عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص253.

³² -عبد الرحمان بن خلدون، تاريخ العبر، وزارة الثقافة، الجزائر عاصمة الثقافة العربية، سلسلة الأنيس، 2007، ج. 14، ص 121.

³³ -عمر سعيديان، علاقات اسبانيا القطلانية بتلمسان في الثلثين الأول والثاني من القرن 14م، منشورات ثالة، الأبيار، ط. 2، 2011، ص 39.

³⁴ -رضوان البارودي، المرجع السابق، ص 64-65.

³⁵ - تذكر المصادر أن النصارى عملوا على تدبير مؤامرة لقتل السلطان يغمراسن بن زيان والذي كان وراءها هو محمد بن زيان أخ السلطان، وبعد فشل المحاولة كان مصيره القتل، انظر: عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ص 121؛ يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج. 1، ص 206.

³⁶ - atallah dhina, op.cit ,p523, note1.

³⁷ - لطيفة بشاري، العلاقات التجارية للمغرب الاوسط في عهد إمارة بني عبد الواد من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجريين (13م/16م)، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011، ص 145.

³⁸ - عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 188.

³⁹ - Atallah dhina, op cit, p523. note1.

⁴⁰ - زينب عبدالله أحمد كير، أهل الذمة في العهد الحفصي، أطروحة دكتوراة غير منشورة، جامعة الزقازيق، كلية الآداب، قسم التاريخ، 2005، ص 106، هامش 1.

⁴¹ - عمر سعيديان، المرجع السابق، ص 38-39.

⁴² - dehina , op cit. p523. note1؛ عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 189.

⁴³ - dehina, ibid. p446.

⁴⁴ - يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص

⁴⁵ - dehina, ibid. p446-447؛ عبد العزيز فيلاي، نفسه، ص 189.

⁴⁶ - رضوان البارودي، المرجع السابق، ص 35.

⁴⁷ - عمر سعيديان، المرجع السابق، ص 41-42.؛ عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 189؛ عبد

العزیز فیلالی، دراسات في تاريخ الجزائر والغرب الاسلامي، ص 65.

⁴⁸ - عمر سعيديان، نفسه، ص 41.

⁴⁹ - نفسه، ص 42.

⁵⁰-هلال القطلاي: ولد في غرناطة وتربى عند بني الأحمر، وقد أهداه السلطان الغرناطي محمد الثاني المعروف بالفقيه إلى عثمان الأول بن يغمراسن، ثم صار إلى أبي حمو الأول فأعطاه إلى أبي تاشفين، وقد شارك في المؤامرة التي أطاحت بالسلطان أبي حمو، ولقد عينه أبو تاشفين وزيرا وحاجبا له. وقد اتمت حياة هذا الحاجب في السجن عام 729هـ-1329م، بعد أن غضب عليه السلطان. انظر: عبد الرحمان بن خلدون، العبر، ج. 14، ص 163؛ يحيى بن خلدون، البغية، ج. 1، ص 214.

⁵¹-dehina, op cit. p448؛ عمر سعيدان، المرجع السابق، ص 42 .

⁵²-خوسي اليماني، المرجع السابق، ص 35.

⁵³-عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 65.

⁵⁴-عبد الواحد المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، تح. حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، ط. 1، 1997، ص 233.

⁵⁵-عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، ص 190.

⁵⁶-إيفرخان: كلمة بربرية بلغة تاشلحيت ومفردها آفروخ. بمعنى شاب، وتستعمل هنا بمعنى مرتزقة النصارى، ولا شك أن هذه الكلمة هي أصل كلمة farfanes التي أطلقت على أعقاب هؤلاء النصارى الذين أعيدوا إلى أوطانهم. انظر: رضوان البارودي، المرجع السابق، ص 208، هامش 1.

⁵⁷-عبد العزيز فيلاي، دراسات في تاريخ الجزائر، ص 65.

⁵⁸-عمر سعيدان، المرجع السابق، ص 39-40 .